الطريقة الفقرية في مملكة غرناطة: تأثيراتها على الحياة الاجتماعية وموقف الفقهاء منها (من خلال كتب النوازل والفتاوى)

أ/ زوبير بعلي/ قسم التاريخ وعلم الآثار/ جامعة باتنة 1

zoubirhistory@gmail.com

الملخص:

تعتبر دراسة تاريخ مملكة غرناطة من الأهمية بمكان نظرا لأنّها تمثل الحلقة الأخيرة من الوجود الإسلامي بالعالم الغربي والذي امتدت تأثيراته إلى اليوم، وقد التقت في غرناطة جملة من التيارات الفكرية التي كان لها أثرها على الحياة الاجتماعية، ولعلّ أهم تلك التيارات هو طريقة البعض ممن ينتسب للفقر والتصوّف، ويبدو أنّ طريقة الفقراء التي شاعت في غرناطة وكثر مريدوها لم تكن لتلق قبولا لدى الطبقة العريضة من فقهاء ذلك العصر، فاتّهم منتحلوها بالبدعية والتحليل وانتحال صفة المتصوفة لأغراض دنيوية خسيسة فكان الصراع بين الفقهاء والفقراء كبيرا امتدّت تأثيراته إلى المجتمع الغرناطي، هذا ويهدف البحث إلى إظهار أنّ الفقهاء لم يكونوا ضدّ التصوّف الصحيح بل كان الكثير من الفقهاء متصوّفة كأبي البركات البلفيقي، والإمام المواق، وغيرهم، وإنّما كانوا ضدّ من ينتحلون التصوّف ويدخلون فيه ما ليس فيه، كما يهدف البحث إلى إظهار دور فقهاء غرناطة في توحيد المرجعية الدينية بما فيها الفقه والتصوّف لما في ذلك من أهمّية في الحفاظ على قوّة الأمّة والحفاظ على وحدة نسيجها الاجتماعي، ويظهر ذلك جليّا من خلال مختلف الفتاوى والنوازل التي كان يستفتى فيها الفقهاء، حيث تعطينا هذه الفتاوى صورة

عن نقاط التفاعل وتأثير هذه الطائفة على المجتمع على اعتبار أنّ الفتاوى كانت تحمل دائما دلالات واقعية لأنّ الفقه كان عليه مدار الحياة اليومية.

The study of Granada kingdom's history is considerably important due to the fact that it represents the last corner of Islamic rulein the western world which impact lasted till today. Granada was a hub for so many intellectual currents that influenced its social life. Among the most important currents is an approach adopted by some of 'Faqr'and 'affiliates'.This 'Tariqat Alfoqara', whichhad become widespread and had got so many affiliates, hadn't got the consent of the significantly large class of contemporary jurisprudent who regarded them as cultists and sufiimpersonators for mere despicable material purposes. The controversy between the 'Foqara' and the jurisprudents was sobig that it had been affecting the whole Granadian society. The purpose of the actual research paper is to prove that the jurisprudents were not against the right sufism- since many of them were sufis, too, such as Abi Albaraqat Albalfiqi and Alimam Almawwak and so many others,yet they were against sufism intruders and impersonators. This study also aims at highlighting the significant role of Granada's jurisprudents in

unifying the religious references of both of Jurisprudence and Sufismin order to maintain the nation's power and the unity of its socialfabric. The variant 'fatawa'and 'nawazil'which the jurisprudents were often asked about show many influence points of this denominationon society, taking into consideration that these fatawa had been always carrying realistic connotations since jurisprudence was in the center of daily life.

تتجه الدراسات التاريخية المعاصرة إلى دراسة التاريخ الاجتماعي للدول لما له من أهمية في دراسة المجال العام، هذا ويعود السبب في قلة الدراسات المتعلقة بالتاريخ الاجتماعي إلى أنّ أغلب المصادر التاريخية إنما كانت تهتم أكثر بالحدث السياسي والعسكري، وتترجم للخليفة والسلطان والعائلات المالكة وأصحاب الوجاهة من أهل الدولة، وتغفل ذكر الفئات الاجتماعية الأخرى فلا تكاد تذكر إلا قليلا متشتّتة وفي إطار ما يستوجبه السياق، ولذلك وجب البحث عن مصادر بديلة لسد هذا الفراغ وتغطية هذا التشتّت والقلة الذي تشكو منه الكتابة التاريخية بالرجوع إلى كتب النوازل الفقهية.

وذلك لأنّ الفقه ساير المجتمعات الإسلامية في تطوّرها وعرف بحيويته،وذلك لاتسامه بسمة الواقعية،ولذا تميّزت المؤلفات النوازلية بالتجدّد والتطوّر وفقا لما تمليه الحياة في عصر من العصور من مستجدات ووقائع جديدة،وقد كان للفقه المالكي خاصة هذه الصفة وهي الواقعية منذ أن كان الإمام مالك يستنكف عن الإفتاء في المسائل التي لم تحدث، لذلك تعد مؤلفات النوازل من أهم المصادر التي لا غنى للباحث عنها، خصوصا

في الدراسات الفقهية والاجتماعية والتاريخية، لكونها تقدم صورة واضحة عن مدى التفاعلات الواقعية بين مختلف الأحداث والقضايا، فهي مرآة تعكس واقع وهموم المجتمع.[1]

وكتب النوازل والوثائق تعتبر من المصادر الدفينة كما يسميها محمد المنوني في مقابل المصادر الموضوعية وهي المؤلفة في تاريخ الدول وفي تراجم النابهين والشيوخ والتي تلتزم خطة محددة، أما الإفادات التاريخية غير المحدودة إنما تنبث في المصادر الدفينة وهي كتب الجغرافيا والرحلات والنوازل، والحوالات الحبسية هذه المصادر التي تكشف عن ألوان من التاريخ الحضاري.[2]

ولأن العرف والعادة لهما أثر في الأحكام الشرعية كانت النوازل تتسم بالواقعية والخصوصية،فلكل بلد أعرافه وعاداته ولهذا كانت كتب النوازل مصدرا رئيسا في الدراسات الاجتماعية والتاريخ الاجتماعي،ولأنها كتب أريد بها الفتوى لا التاريخ كانت أقرب إلى الواقع وأبعد عن الكذب والتلفيق لأسباب سياسية أو اقتصادية أو حزبية.

يقول الإمام القرافي:"ينبغي للمفتي إذا ورد عليه مستفتٍ لا يعلم أنه من أهل البلد الذي منه المفتي وموضع الفتوى أنه لا يفتيه بما عادته يفتي به حتى يسأله عن بلده،وهل حدث لهم عرف في ذلك البلد في هذا اللفظ اللغوي أم لا؟وإن كان اللفظ عرفيا وهل عرف ذلك البلد موافق لهذا البلد في عرفه أم لا؟.وهذا أمر متعيّن واجب لا يختلف فيه العلماء،وأن العادتين متى كانتا في بلدين ليستا سواء أنّ حكمهما ليس سواء،إنما اختلف العلماء في العرف واللغة هل يقدّم العرف على اللغة أم لا؟والصحيح تقديمه،لأنه ناسخ،والناسخ مقدّم على المنسوخ إجماعا،فكذلك هاهنا."[3]

ولأنّ مملكة غرناطة[4] تعتبر محصلة الحضارة الإسلامية في الأندلس، والحلقة الأخيرة من الوجود الإسلامي في الجناح الغربي من العالم، كانت دراسة هذه الفترة من الأهمية بمكان وذلك لامتداد تأثيراتها الاجتماعية والثقافية إلى اليوم.

هذا وقد التقت في مملكة غرناطة جملة من التيارات الفكرية التي كان لها أثرها على الحياة الاجتماعية، ولعلّ أهم تلك التيارات هو طريقة البعض ممن ينتسب للفقر والتصوّف ويسمون أنفسهم بالفقراء.

وقبل أن نتكلم عن الفتاوى المتعلقة بفقراء غرناطة وموقف فقهائها منهم وتأثير ذلك على الحياة الاجتماعية،كان لزاما أن نتكلم بإيجاز عن الحضور الصوفي والجذور الفكرية للتصوف والفقر في مملكة غرناطة.

1. الحضور الصوفي في مملكة غرناطة (المتصوّفة،الزوايا،الرباطات):

كان التصوف الأندلسي في الجملة بسيطا في بداياته وبعيدا عن التطرف حتى انتهاء القرن الرابع، ولم يشهد صراعا كبيرا ولا أثار حفيظة الفقهاء إلا في حالات قليلة منها كإفتاء ابن زرب بإحراق كتب ابن مسرّة المتأثر بآراء ذي النون المصري.[5]

ومثلها مثل باقي حواضر العالم الإسلامي لم تخلُ مملكة غرناطة(629هـ -897هـ /1232م-1492م)من المتصوفة والزهاد سواء من أهلها أو من القادمين عليها من بلاد العدوة والمشرق فابن خميس التلمساني(ت708هـ) قدم غرناطة سنة 703هـ في جوار الوزير أبي عبد الله بن الحكيم، وجلس لإقراء علوم العربية بها ،ثم مال إلى التصوّف والتّجوال.

وفي مدينة رندة تقابلنا شخصية كان لها أثرها البالغ في التصوّف ليس في مملكة غرناطة فحسب وإنّما امتدّ تأثيرها إلى بلاد العدوة كتلمسان وفاس، وهي شخصية محمد بن عبّاد الرندي(ت792هـ)،الذي نشأ برندة وقرأ بها عن أبيه وعن القاضي أبي عبد الله الفريسي، واشتغل بعلوم النحو والأصول والفروع حتى حصّل معانيها، ثمّ سلك طريق التصوّف، وارتحل إلى تلمسان فأخذ عن الشريف التلمساني والآبلي شيخ العلوم العقلية، و كان المقرّي الجد يفتخر بكون بن عباد الرندي تلميذا له فقد أخذ عنه مختصر ابن الحاجب وفصيح ثعلب، وبعض مسلم شرحا، وارتحل إلى فاس فأخذ عن قاضي الحضرة والجماعة أبي محمد عبد الله الفشتالي، ثم رحل لطنجة فأخذ عن الصوفي أبا مروان عبد الملك، وبسلا عن أحمد بن عاشر، وتولى الخطابة بفاس، فبقي بها إماما وخطيبا بالقرويين وتوفي بها ولا تزال داره بها إلى الآن.[6]

ومن كتبه التي كان لها بالغ الأثر كتابه في شرح الحكم العطائية، وله كتاب "الرسالة الكبرى"و "الرسالة الصغرى"وذكر ابن قنفذ في كتابه" "أنس الفقير وعزّ الحقير" أنّ ابن عباد كان لا يُرى جالسا في مجلس إلا أن يُطلب، ويتولى أمر خدمته بنفسه، ورغم ذكر المقرّي أنّه كان يحضر السماع ليلة المولد عند السلطان وهو لا يريد ذلك إلّا أنّه يذكر أنّ أهل فاس جمعوا خطبه فيما يتعلق بالمولد وهم يقرؤونها في المولد عند السلطان تبرّكا.[7]

ومن أبياته التي تبيّن نحلته في التصوف وطريقته، وأنّ التصوف ليس مظهرا بل ذوق وسرٌّ واجب على الصوفي أن لا يكشف عنه. قوله:

ولقد عُرفتُ بستر سرّي في الهوى فهجرتني فكُسيتُ سرّ الهاتكِ

ما السترُ إلا ما يحوكُ رضاك لا ما حاكه للسّتر كفُّ الحائكِ[8]

وقد عبّر البلفيقي عن هذا المعنى وضدّه فقال:

كتْمُ الهوى حرية بعض وبعض ضاق ذرعًا بالغرام فبرّحا[9]

ويبدو أنّ مثل طريقة هؤلاء كابن عباد وابن خميس في التصوّف لم تكن لتكسبهم عداوة الفقهاء فالإمام الشاطبي –وهو من هو في الاشتداد على البدع والرد على بدع المتصوفة في وقته–راسل الشيخ ابن عباد الرندي يسأله عمن أراد سلوك طريق التصوّف هل يلزمه شيخ في سلوكه؟[10]

وكان أبو يحي بن الإمام أبي عبد الله الشريف التلمساني يستدلّ بأقوال الشيخ ابن عبّاد الرندي في التسليم في الإيمان بالأسماء والصفات من غير تعرّض إلى التفاصيل والكيفيات وهو مذهب السلف، من ذلك قوله:"...آمنا به على ما نطق به الوحي، فهذا هو مذهب الشيخ الولي القطب الخطيب الصالح المرحوم سيّدنا وبركتنا ووسيلتنا إلى الله محمد بن عبّاد رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به وبصحبته."[11]

هذا وكان في غرناطة من الفقهاء أنفسهم والقضاة متصوّفة كثيرون يجمعون بين الفقه والتصوف منهم القاضي أبو البركات بن الحاج البلفيقي(ت771هـ)كان متصوّفا وكان أبوه من العارفين الصوفية، وقد ألّف أبو البركات كتابا ذكر فيه بعض كرامات جدّه وذكر من أقواله في تعريف التصوّف: "الصوفية عبارة عن رجل عدل تقي صالح زاهد، غير منتسب لسبب من الأسباب، ولا مخلٍّ بأدب من الآداب، قد عرف شأنه وزمانه، وملكت مكارم الأخلاق عنانه، لا ينتصر لنفسه، ولا يتفكّر في غده وأمسه، العلم خليله والقرآنُ دليله،والحقّ حفيظه ووكيله،نظر إلى الخلق بالرحمة،ونظر إلى نفسه بالحذر والتهمة."[12]

وابن الخطيب يذكر بعض أشعار أبي البركات البلفيقي والتي قيّدها عنه برابطة العقاب.[13] وهي على جبل العقاب المطل على غرناطة.[14] وكانت هذه الرابطة متعبّد ولي الله أبي إسحاق الإلبيري الشاعر(ت459هـ)اشتهر بقصيدته في التحريض على قتل اليهود في عهد بني زيري بعد أن اشتدّت شوكتهم وطغيانهم.

ومن هذه الأبيات التي لا تخلو من مسحة صوفية قوله:

فأجبتُها لو كنت تعلم ما الذي يبدو لتاركها وما يلتاحُ

ما كان معنى غامضٌ من أجله قد ساح قومٌ في الجبال وتاحُ

حتى لقد سكِروا من الأمر الذي هاموا به عند العِيان وساحُ

لعذرتَني وعلمتَ أنّي طالبٌ ما الزُهدُ في الدنيا له مفتاحُ[15]

ولم تخل مملكة غرناطة مثلها مثل باقي حواضر العالم الإسلامي من الزوايا والرباطات الصوفية التي كانت في نشأتها امتدادا لحركة الجهاد والفتوحات بالإضافة إلى أنّها كانت تشكل معاهد علمية لتربية المريدين تربية روحية.ولم يقتصر دور هذه الزوايا على الرباط والتعليم والتربية فقط بل تعدى ذلك إلى إطعام الجوعى،وإيواء عابري السبيل وغيرها من مظاهر التكافل الاجتماعي.

ففي نازلة سئل عنها ابن لب عن اجتماع الفقراء(الصوفية)في حلق للذكر والسماع الصوفي يتواجدون،وينشدون الشعر،فأفتى بجريان المسامحة في ذلك إذا لم يقترن به محرم فيمنع.قال:"...فلا يسمع مع هذا أحد عنده شفقة إسلام وهو الإيمان أن يمنع لأجل حركة جسد فيها ما فيها من المقال بناء مأوى للغرباء الواردين،ومجتمعها للضعفاء وأبناء

السبيل،إلى مالهم في ذلك من سدّ الحاجة وزوال الفاقة.أما إذا كان ذريعة ووسيلة إلى ما لا يحل ولا يجوز كما وصفتم.ومما علمتموه من شأن أولئك القوم،فلا كلام في منع ما يكون من جنس نوافل الخير والقرب لمكان ذلك المخوف المتوقع..."[16]

رابطة بياقة : يذكر الأستاذ ابن لب الغرناطي في إحدى نوازله أنه التقى فيها بالفقيه أحمد بن ثابت والذي كان إماما فيها.[17]

رابطة بلش: ورد في بعض النوازل التي سئل عنها الإمام السرقسطي ذكر رابطة ملاصقة لسور المدينة،وكان لا يصلى فيها إلا في شهر رمضان خاصة.[18]

رابطة العقاب : على جبل العقاب المطل على غرناطة.[19]

زاوية الفقيه أبي الحسن علي بن أحمد بن المحروق : بأعلى ربض نجد من خارج غرناطة،المتصل بجبل السبيكة.[20]

زاويةالصالح الولي أبي عبد الله محمد بن المحروق : خارج غرناطة.[21]

رابطة السعداء : وإذا تجاوزنا حدود غرناطة العاصمة وجدنا ابن عاصم يذكر رابطة بمالقة تسمى رابطة السعداء قد يفهم من اسم الرابطة أنها للمتصوفة.[22]

زاوية بسطة :

سئل عنها الإمام الحفار وهي زاوية حبستها امرأة وسافرت فبقيت بيد الفقراء يجتمعون فيها وينزلون فيها من يرد عليهم من الغرباء.[23]

وقبل أن نتكلم عن فقراء مملكة غرناطة وموقف الفقهاء من مذهبهم وجب علينا تعريف الفقر أولا وما المقصود بفقراء الصوفية وما الفرق بين الفقير والصوفي؟

2. مفهوم الفقر والفرق بينه وبين التصوّف:

عرّف ابن ليون التجيبي الفقر بأنّه مشتق من فِقار الظهر،فالفقر شكر المنعم على كلّ حال،أو هو فقد ما يحتاج إليه.وذكر ابن ليون التجيبي الفرق ما بين التصوف والفقر فقال بأنّهما قد يطلقان ويراد بهما معنى واحد،وقيل إنّ التصوّف هو غاية الفقر،وقيل الفقر أفضل لأنّه شامل لكلّ ما سوى الله تعالى لأنّ الحادث مفتقر لموجود يوجده،ثمّ للمسك يمسكه،ثم لمنعم ينعم عليه،فيكون الفقر بذلك قبل التصوّف ومعه وبعده،فهو أعمّ من التصوّف من جهة،وأخصّ منه من جهة أخرى.[24]فالفقراء والصوفية شيء واحد في المعارف والأذواق مختلفون في اللباس،فالصوفية يلبسون ما يجدون وقد يلبسون فاخر الثياب ويتسببون في المعاش،أمّا الفقراء فيلبسون المرقعة وهم متجرّدون.[25]

أما ابن تيمية فيذكر الفقير والصوفي بمعنى واحد فيقول:"فإذا قيل:هذا فيه فقر،أو ما فيه فقر، لم يُرد به عدم المال،ولكن يراد به ما يراد باسم الصوفي من المعارف والأحوال والأخلاق والآداب وغير ذلك."[26]

وذكر ابن تيمية من مدّعي التصوّف والذين سمّاهم صوفية الرسم في مقابل صوفية الحقائق والأرزاق،وصوفية الرسم هم من اكتفوا بتقليد الصوفية في اللباس والآداب الوضعية بحيث يعتقد الجاهل حقيقة أمره أنّه منهم وليس منهم.[27]

وذكر ابن ليون التجيبي في شرحه على رسالة الششتري صفات الفقراء والتي أنكرها عليها غيرهم،وهي التجرّد والتقشّف،وترك الأسباب والسؤال،والخروج عن المال

وترك الادّخار،ولبس المرقعة،وكثرة السفر وترك الوطن،والأكل في المسجد،والرقص في المسجد...[28]

هذا وكان القاضي أبو البركات البلفيقي متصوّفا وكان ممن يفضّل الغنى على الفقر خاصة مع الحالة التي كانت تعيشها بلاد الأندلس في وقته،ومن كلامه:"من اقتصر على التعييش من مرافق الملوك ضاع هو ومن له،وشمله القلّ وخامره الذلّ.اللّهم إلا من كان بالقوة من الله قد بلغ من الزهد في الدنيا إلى الحدّ الذي يُكسبه الراحة بالخروج عن متاعها،وترك شهوتها،قليلها وكثيرها،ومن لنا بالعون على تحصيل هذا المقام،ولا سيما في هذا الزمان."[29]

ويبدو أنّ صوفية البلفيقي في تفضيل الغنى على الفقر أثار حفيظة بعض منتحلي طريقة الفقراء،يذكر صاحب تحفة المغترب أنّ أبا مروان عبد الملك حدّثه أنّه كانت له رحلة إلى المشرق ولما قدم المرية أنكر عليه صلحاؤها من أصحاب أبي إسحاق البلفيقي(جدّ أبي البركات البلفيقي)،الذين لم يعرفوا –حسب قوله– الفقراء ولا سلوكهم وكانوا لا يعرفون طريقا إلا طريقهم،وشكوه إلى قاضيها أبي عبد الرحمان بن غالب متهمين إياه بالرقص والسماع ولبس مدرّعة الشعر،ولكن ابن غالب ردّهم وبرّأه ولم يعب عليه ذلك،فشكوه إلى ابن الرميمي،فأرسل صاحب شرطته إليه والذي رأى من كراماته ما رأى،ثم إنّ عبد الملك سمع بالقصة فخرج من المرية ولم يرجع إليها إلا بعد خمس وثلاثين سنة.[30]

ولأنّ السفر كان من صفات الفقراء سمّوا بالسفارة ولذا لم تكن هذه الطريقة لتقتصر على غرناطة،إذ يبدو من بعض النصوص أنّها كانت منتشرة ببلاد العدوة أيضا

فالحسن ابن الخرّاز كان يعمل خرّازا للديباج بمالقة ثم إنّه خرج منها وتجرّد للعبادة على طريقة الفقراء برابطة البحر ببادس،وكان لا يمرّ مركب ببادس إلا أعطى شيئا للفقراء باسم الرابطة.[31]

ولم يمنع السفر وبعد المسافة أصحاب الطريقة بالمشرق من الاجتماع بمنتحليها في المغرب فالبادسي يذكر عند ترجمته لصوفي أندلسي هو أبو مروان عبد الملك[32] تلميذ أبو محمد صالح الماجري شيخ آسفي في وقته،أن عبد الملك استقر بسبتة على طريقة الفقراء،كان يصنع للفقراء طعاما ليلة المولد،يعمل فيها السماع،وربما حضرها بعض فقراء المشرق،وكان ممن حضرها فقير يتعاطى ورق القتيب (الحشيشة)،فخبأها في مقبرة ولما حلّ الليل ورأى قناديل الزجاج والشطح والسماع فكّر في تناولها ليحضر معهم،وكان أن حصل الكشف لعبد الملك فأرسل من رماها في البحر،وأعلم الفقير بذلك فكان ذلك سببا لتوبته وإقلاعه.[33]

ومما يدعم هذا القول ما ذكره الرحالة ابن بطوطة من أن الكثيرين من فقراء العجم استوطنوا غرناطة وذكر منهم:الحاج أبو عبد الله السمرقندي،والحاج أحمد التبريزي،والحاج ابراهيم القونوي،والحاج حسين الخراساني،والحاجان علي ورشيدي الهنديان.[34]

وقبل الحديث عن موقف الفقهاء من فقراء الصوفية من خلال كتب النوازل الفقهية وجب علينا الرجوع إلى شخصيتين كبيرتين من المتصوفة كان لهما الدور البارز في متصوفة مملكة غرناطة وهما:ابن سبعين وتلميذه الششتري

ولنبدأ بابن سبعين عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن فتح بن سبعين العكّي المرسي،انتقل إلى سبتة وانتحل التصوّف وكثر أتباعه من الفقراء الذين كما يصفهم ابن الخطيب بأهم ارتسموا في نحلة التصوّف من غير تحصيل لها.[35]

ويذكر ابن الخطيب أنّ النّاس اختلفوا في ابن سبعين ما بين موهن مكفّر ومقلّد معظّم،وقد كثر عليه التأويل من الفقهاء.[36]

ونحن إذ نذكر ابن سبعين هنا ورغم أنّه توفي بمكة سنة 669هـ،إلا أنّ ابن الخطيب ذكر أنّه دخل غرناطة في عدد كبير من أتباعه ونزل برابطة العقاب[37]،كما أنّ مؤلفاته كانت ذائعة جدا في غرناطة فقد ذكر القاضي أبو البركات بن الحاج أنّ ابن خميس كتب على ظهر نسخة كتاب لابن سبعين المسمّى"الفقيرية":

الفقرُ عندي لفظٌ دقّ معناه من رَامَهُ من ذوي الغاياتِ عَنّاه

كم من غبيٍّ بعيدٍ عن تَصوّره أراد كشفَ مُعمّاه فَعمّاه[38]

أما الششتري علي بن عبد الله النميري[39]،من أهل ششتر وهي قرية من عمل وادي آش،كما كان يدعى باللوشي نسبة إلى مدينة لوشة(Loja) التي عاش فيها بعضا من طفولته،وكان من أولاد الأمراء،ثم أصبح من الفقراء الصوفية،خدم ابن سبعين وتتلمذ على يده،ولما مات ابن سبعين انفرد بعده برياسة الفقراء والسفارة،وقد قيل إنّه كان يتبعه في أسفاره أربعمئة فقير يقومون على خدمته.[40]

وقد دخل الششتري غرناطة ونزل برابطة العقاب وكان يتكرّر إليها.[41]

وإذا جئنا إلى طريقة الفقراء والتي كان من كبار منتحليها ابن سبعين وتلميذه المتأثر به كثيرا في بعض مراحل حياته الششتري(ت668هـ) وجدنا من ينسب إليها القول بالوحدة المطلقة[42] التي تراجع الششتري عن القول بها فيما بعد عندما استقر بمصر.

3. موقف فقهاء غرناطة من فقرائها:

تغصّ كتب النوازل الفقهية بالنوازل المتعلقة بطريقة الفقراء كمسائل السماع والرقص الصوفي والذكر الجماعي،وكذا حول تفاعل المجتمع الغرناطي معها كوقف البيوت والمنازل لتكون رباطات وزوايا للفقراء،ووقف فوائد الأحباس عليها.ففي نازلة سئل الإمام الحفار عن زاوية بمدينة بسطة(Baza)،وهي زاوية حبستها امرأة وسافرت فبقيت بيد الفقراء يجتمعون فيها وينزلون فيها من يرد عليهم من الغرباء. [43]وفي نازلة سئل عنها الإمام المواق ذكر لهدية للفقراء تتمثل في أصول شجر التوت وبيت.[44]

ورغم أن الكثيرين ممن نسبوا إلى التصوف كانوا فقهاء إلا أن هذا لم يمنع من رفض بعض الفقهاء للكثير من طرقها ونسبتها إلى البدعة بسبب ما علق بها من ضلالات واستغلال الكثير منهم للتصوّف لأغراض خسيسة فقد ذكر الإمام الحفآر عند جوابه على نازلة زاوية بسطة أنّ صوفية وقته قد حادوا عن التصوّف الصحيح حيث قال:"وقد بخست هذه المحبسة نفسها حيث حبست على الفقراء،(فقراء الوقت)لاسيما الذين ينتابون الحصون والمواضع النائية عن الحضرة أكثرهم على الطريقة غير المرضية...". [45]

بل إنّ من الششتري الصوفي ذكر أنّ من الناس من انتحل طريقة الفقراء لأجل غايات دنيوية خسيسة وليس من المتجردين فعلا،ولكن فقط ليعظمه الناس ويسعون في قضاء مآربه.[46]

ويبدو أنّ هذه الطريقة لم تلق ترحيبا وقبولا ليس من بعض فقهاء غرناطة فحسب بل حتى من بعض فقهاء العدوة،فأبو محمد صالح الماجري المذكور ألف كتابا في التصوّف واشتد عليه فيه إنكار الفقهاء في عصره[47].

وبلغ تأثير هذا الصراع بين الفقهاء وأصحاب هذه الطريقة إلى أعلى هرم السلطة بعد أن كثر أتباعها ومريدوها،يذكر صاحب تحفة المغترب أنّ أبا مروان عبد الملك حدّثه أنّه كانت له رحلة إلى المشرق ولما قدم المرية أنكر عليه صلحاؤها من أصحاب أبي إسحاق البلفيقي،الذين لم يعرفوا –حسب قوله– الفقراء ولا سلوكهم وكانوا لا يعرفون طريقا إلا طريقهم،وشكوه إلى قاضيها أبي عبد الرحمان بن غالب متهمين إياه بالرقص والسماع ولبس مدرّعة الشعر،ولكن ابن غالب ردّهم وبرّأه ولم يعب عليه ذلك،فشكوه إلى ابن الرميمي،فأرسل صاحب شرطته إليه والذي رأى من كراماته ما رأى،ثم إنّ عبد الملك سمع بالقصة فخرج من المرية ولم يرجع إليها إلا بعد خمس وثلاثين سنة.[48]

ويمكن إيجاز أهم مؤاخذات فقهاء غرناطة على منحلي هذه الطريقة في العهد النصري في النقاط الآتية:

أ– القول بالإباحة وإسقاط التكاليف الشرعية:

فقد ذكر الإمام الحفار أن الكثير منهم ممن يتخذ دينه لهوا ولعبا،مضل العقائد،قائلا بالإباحة،مسقط للتكاليف الشرعية.[49]

وقد سئل الإمام الشاطبي عن رجل انتحل الطريقة الفقرية وهي طريقة إباحية ،وشهد عليه بأنّه قال:العبادة ثلاثة أقسام:مجازية وهي ماعليه هؤلاء الناس وأشار برأسه

يمينا وشمالا،وعبادة حق وحقيقة،وأن الفقير لا ينظر في كتاب ولا أسطار وإنما يقول ما حصل في صدره.إلى غير ذلك من أقوال الإباحة والتحليل.[50]

والشاطبي يذكر أنّه عودي بسبب مواقفه وأنّه لم يكن ضدّ التصوف الصحيح وإنّما كان ضدّ الضلالات والبدع التي التصقت به.يقول:"وتارة نُسبت إلى معاداة أولياء الله،وسبب ذلك أنّي عاديت بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة،المنتصبين-بزعمهم- لهداية الخلق،وتكلمت للجمهور عن جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا أنفسهم للصوفية ولم يتشبهوا بهم."[51]

وما يدعم هذا القول وهو أنّ الكثيرين من العوام والجهال قد ركبوا موجة التصوّف لأغراض خسيسة ما ذكره ابن عاصم حول قصة يوسف المدجن الذي ادعى الانتساب إلى الولاية وقتله،وانتصار بعض العامة له وزعم البعض واعتقادهم أنه لم يمت واعتقادهم رجعته.[52]

ب- استغلال النّاس وأكل أموالهم بالباطل:

عاب الفقهاء على منتحلي هذه الطريقة تركهم للعمل والتسبب وسؤال النّاس واستغلالهم باسم الدّين فقد ذكر الإمام الحفّار أنّ طائفة الفقراء المنتمية للتصوف في زمانه وفي مملكة غرناطة قد عظم ضررها في الدين،وفشا فسادها لا سيما في القرى والحصون البعيدة عن الحضرة،وأنّهم قوم لا همّ لهم ولا حرفة ولا صناعة ليس لهم من الدين إلا الأكل والشطح وأكل أموال الناس بالباطل،همّهم النصب والاحتيال على الجُهّال من العوّام والنساء،وأنّهم أفسدوا التصوّف بما أضافوا إليه من البدع والضلالات.[53]

ويبدو أنّ سؤال النّاس واستجداءهم وترك التسبّب كانت عادة مذمومة عند الأندلسيين في الجملة فقد ذكر الإمام المقري كراهية الأندلسيين واستقباحهم لطريقة الفقراء على طريقة أهل الشرق في الدروزة التي تُكسل عن الكد وتُحوج الوجوه للطلب.[54] ويبدو أنّ الدروزة قد انتقلت إلى فقراء غرناطة تشبها بفقراء المشرق ففي تحفة المغترب ذكر الشيخ أنّه كان في إحدى القرى بالمشرق دخلها الفقراء فدروزوا فلم يُعطوا شيئا.[55]

ويظهر من نص الرسالة البغدادية جملة المسائل التي عابها بعض الفقهاء على الفقراء كلبس المرقعة،إلا أنّ أهمّ مأخذ ربما كان السؤال بالزنبيل والدروزة.[56]

ت- الإنحراف والفساد الأخلاقي:

وإذا تتبعنا نصوص النوازل وجدنا بعض النصوص تنقل لنا حالة من بعض مظاهر الانحراف في بعض الرباطات والزوايا خاصة في القرى والحصون والمواضع البعيدة عن الحسبة والجهاز القضائي.

ففي نازلة سئل أبو البركات البلفيقي عن زاوية للفقراء يجتمعون فيها للذكر والأكل وإنشاد الشعر ويشطحون ويبكون.فأجاب بأنه جرى المسامحة في ذلك لما في ذلك من الصدقات وإرفاد ابن السبيل ووافقه ابن لب،ولكن أهل قنالش أنكروا على المفتين هذه الفتوى وذكروا أن أقواما يجمعون النسوان ويدخلون في المنهيات،ويتلبسون بصبيان من أهل الفساد،فأجاب ابن لب بأن السائل لم يذكر في سؤاله ما ذكروا من الفساد،ولا كان المجيب يعلم الغيب فيتركب عليه الجواب.[57]

4. اختلاف الفقهاء في بعض مسائل التصوف:

الاحتفال بالمولد النبوي:

يعتبر مولد خير البرية عليه السلام من أهم المناسبات التي يحتفل بها المتصوفة،وقد بلغ الاهتمام بهذه المناسبة إلى وقف الأموال من أجل هذا الاحتفال فقد سئل الإمام المواق عن هدية الفقراء وهي بيت وأصل توت يجتمع فيه أهل تلك القرية للذكر ومدح النبي صلى الله عليه وسلم،والبعض يأكل الطعام رجاء البركة،فأجاب بجوازه ما لم يؤدي إلى تعطيل فرض أو الوقوع في محرّم.[58]

على الرغم من اختلاف فقهاء غرناطة في حكم الاحتفال بالمولد بين من يرى بجواز الاحتفال وبين من يرى ببدعيته مثل الإمام الشاطبي والإمام الحفار،فقد كان الغرناطيون يحتفلون بالمولد النبوي من السلطان إلى العامة،وكان أكثر من يتوسع في الاحتفال بهذه المناسبة المتصوفة الذين هم على طريقة الفقراء.

وفي نفاضة الجراب ذكر ابن الخطيب احتفال السلطان بالمولد مع حضور الصوفية والفقراء،وقد ذكر ابن الخطيب أنّهم كثيروا العدد في زمانه من المتسبّبة والمتجرّدين،وأرباب الخرق المسافرين والأعاجم الواردين على غرناطة.[59]

ويذكر ابن الخطيب وجود السماع في هذا الاحتفال وتواجد ورقص الصوفية والفقراء.[60]

يبدو أنّ الخلاف كان عميقا شمل الفقهاء أنفسهم قبل أن يطفو على الحياة الاجتماعية فالكثير من المسائل كان يفتي البعض ببدعيتها وأنها من المحدثات،ويفتي غيره

من الفقهاء بجوازها منها الاجتماع للذكر،والاحتفال بالمولد النبوي الشريف وغيرها ولكنّهم متفقون جميعا على أنّها تحرّم إذا ارتبط بها محرّم أو أدّت إلى تعطيل فرض.

وقد أراد البعض استغلال الخلاف ليجعله مطية إلى مالا يجوز،وهو ما ردّ به ابن لب على البعض ممن أراد استغلال الخلاف في الفتوى وأدخل فيه من المحرمات يقول ابن لب:"وجعلتم قضيتكم المختلف فيها وسيلة في النازلة إلى محرّم محصور في الشريعة لا يقوم له بشيء ولا يغتفر لمكانة ما يدخل في باب نوافل الخير،كيف ما أحسن أحواله أن يكون مباحا،قد بينا جواز الزمر في العرس...ولكن لا يجوز بانكشاف النساء للرجال،ولا هتك الأستار،ولا سمع الرفث،فإن جرى ذلك إلى مالا يجوز منع من أوله واجتنب من أصله."[61]

الذكر الجماعي:

يعتبر الذكر الجماعي من أهمّ مميّزات الطرق الصوفية،هذا وقد اختلف فقهاء غرناطة حول مشروعية الذكر الجماعي بين مجيز ومبدّع.

وكان الإمام ابن لب ممن أفتى بجواز الذكر الجماعي،ولكنّه ذكر أنّ فقراء الوقت(يقصد عصره) قد تحيّزوا بسمات وتميّزوا بأصوات هي إلى الاعتداء منها إلى الاقتداء وطريقتهم إلى اتّخاذها مأكلة وصناعة أقرب منها إلى اعتدادها قربة وطاعة.[62]

خاتمة:

في الأخير ويبدو من خلال النصوص الفقهية أنّ فقهاء غرناطة على اختلافهم في بعض المسائل كمشروعية الاحتفال بالمولد،ومسألة السماع وغيرها إلا أنّهم لم يكونوا أبدا ضدّ التصوّف الصحيح بل كان أغلبهم متصوّفة،ولكنّهم كانوا ضد البدع والضلالات التي علقت به،وضدّ استغلال التصوّف لأغراض دنيئة خسيسة كجعل التصوّف ذريعة لأكل أموال النّاس بالباطل،والتحلّل من التكاليف الشرعية وإسقاطها.

والتصوّف المحمود هو التصوّف الذي لا يتعارض مع الأحكام الفقهية ولا يلغيها ولا يعطّلها وهو ما ذكره المواق نفسه في كتابه سنن المهتدين من كلام ابن سراج نقلا عن أبي عبد الله الحفّار:"...نحن مالكيو المذهب في الأحكام،الحلال والحرام،وعلى مذهب المحدّثين في الرقائق والآداب كما كان ساداتُ المسلمين الصوفية،هذا سيّد الطريقة وإمام الحقيقة الإمام الجُنيد حجة في التخلّق والسلوك،وبالنسبة للحلال والحرام هو مقلّد لأبي ثور،وهذا الشبلي قال عياض هو شيخ الصوفية وإمام أهل علم الباطن،وكان في الأحكام مقلّدا لمالك،وهذا رويم قال في الرسالة إنّه من جلّة مشائخ الصوفية وكان في الأحكام مقلّدا لداوود،وهذا أبو القاسم القشيري شافعي المذهب."[63]

كما أنّ رباطات وزوايا مملكة غرناطة وإن كان الكثير منها على رأي الكثير من فقهاء الوقت[64] قد ابتعدت عن التصوّف السني وأن الكثير من منتحليها أصحاب ضلالات جهال يستغلون أموال الناس بالباطل،إلا أنّه لا يخفى تأثيرها على الحياة الاجتماعية،فقد كانت ملجأ للكثير من الفئات الاجتماعية،كما عكست عدم قدرة السلطة المركزية في غرناطة على التحكم في مظاهر البدع والانحرافات الاجتماعية خاصة

تلك التي كانت على الأطراف بعيدة عن حضرة غرناطة،وهي تعطينا نظرة عن ضعف المستوى التعليمي ومستوى الوعي في البوادي والحصون حيث كان الكثير من سكانها يعانون من الاقصاء الاجتماعي في ميدان التعليم.

راعى الكثير من الفقهاء كابن لب والمواق والبلفيقي الحالة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الغرناطي في فتاويهم فأفتوا بجواز الاجتماع للذكر الجماعي والسماع لما كان يتخلل ذلك من إطعام للجوعى وابن السبيل،لكنّ جميعهم على اختلافهم في بعض المسائل متفقون على أن لا يتخلل ذلك محرم معلوم تحريمه.

[1] محمد حجي:نظرات في النوازل الفقهية،ص:77و78،كمال السيد أبو مصطفى:جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي،ص:08و09

[2] محمد المنوني:المصادر العربية في تاريخ المغرب،ص:08

[3] القرافي:الإحكام،ص:232

[4] تطلق مملكة غرناطة على القسم الجنوبي الشرقي للأندلس فيما وراء نهر الوادي الكبير.وتنفتح حدودها الشرقية على البحر المتوسط ،يحدها من الشمال مدن جيّان وقرطبة واشبيلية،وتمتد جنوبا حتى جبل طارق ويحدها من الشرق ولاية مرسية وشاطئ البحر الأبيض المتوسط،ومن الغرب ولاية قادس وأرض الفرنتيرة.وكانت مملكة غرناطة تضم ثلاث ولايات كبيرة هي:غرناطة ومالقة والمرية.أنظر:

Simonet, description del reino de Granada, p.23;Miguel lafuente alcantara, Historia de Granada, p.01

[5] محمود علي مكي:التصوف الأندلسي:مبادئه وأصوله،مقال منشور ضمن مجلة دعوة الحق،العدد08و09،ماي 1962م،ص:06-12

[6] المقري:نفح الطيب، ج05،ص:341وما بعدها

[7] المصدر نفسه، ج05،ص:341وما بعدها

[8] ابن الخطيب:الكتيبة الكامنة،ص:44

[9] المصدر نفسه،ص:130

[10] الونشريسي:المعيار، ج12،ص:293-307

[11] المصدر نفسه، ج12،ص:239

[12] نفح الطيب، ج05،ص:471وما بعدها

[13] الإحاطة، ج02،ص:155

[14] رحلة ابن بطوطة، ج02،ص:685

[15] الإحاطة، ج02،ص:155و156

[16] المعيار، ج11،ص:37

[17] نوازل ابن لب، ج01،ص:74

[18] المعيار، ج07،ص:145و146

[19] رحلة ابن بطوطة، ج02،ص:685

[20] المصدر نفسه، ج02،ص:685

[21] المصدر نفسه، ج02،ص:685

[22] ابن عاصم:جنة الرضا ج01،ص:192

[23] المعيار، ج07،ص:115وما بعدها

[24] الششتري:الرسالة الششترية،ص:135و136

[25] المصدر نفسه،ص:138

[26] ابن تيمية:الصوفية والفقراء،ص:39

[27] المصدر نفسه،ص:35

[28] الرسالة الششترية،ص:75

[29] النباهي:المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا،ص:164و165

[30] القشتالي:تحفة المغترب،منشور ضمن صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد،الملجد 17،ص:110-112، ينظر أيضا،ص:169

[31] البادسي:المقصد الشريف،ص:106

[32] وهو من ألف في كراماته الأزدي القشتالي كتابه:تحفة المغترب.

[33] البادسي:مصدر سابق،ص:99-102

[34] رحلة ابن بطوطة، ج02،ص:685

[35] الإحاطة، ج04،ص:31و32

[36] المصدر نفسه، ج04،ص:33و34

[37] المصدر نفسه، ج04،ص:37و38

[38] نفح الطيب، ج05،ص:360،أزهار الرايض، ج02،ص:302و303

[39] ترجمته في نيل الابتهاج ص:221،والاحاطة ج04،ص:205

[40] الإحاطة، ج04،ص:205و206

[41] المصدر نفسه، ج04،ص:207

[42] الرسالة الفقيرية (ضمن رسائل ابن سبعين)،ص:12

[43] المعيار، ج07،ص:115وما بعدها

[44] المصدر نفسه، ج11،ص:96

[45] المصدر نفسه، ج07،ص:115وما بعدها

[46] الرسالة الششترية،ص:61وما بعدها

[47] المقصد الشريف،ص:101و102

[48] تحفة المغترب،ص:110-112،ينظر أيضا،ص:169

[49] المصدر نفسه،ج07،ص:115وما بعدها

[50] فتاوى الشاطبي،ص:189

[51] الشاطبي:الاعتصام،ج01،ص:21

[52] جنة الرضا،ج01،ص:189 قبلها وبعدها

[53] المعيار،ج11،ص:42وما بعدها،وكذاج07،ص:100و101

[54] نفح الطيب،ج01،ص:220

[55] تحفة المغترب،ص:98

[56] الششتري:الرسالة البغدادية(ضمن نصوص من التراث الإسلامي)،ص:154

[57] المعيار،ج11،ص:38و39

[58] المصدر نفسه،ج11،ص:96

[59] نفاضة الجراب،ص:277و278

[60] المصدر نفسه،ص:279

[61] نوازل ابن لب،ج،ص:208و209

[62] المصدر نفسه،ج01،ص:191-194

[63] سنن المهتدين،ص:229

[64] انظر مثلا فتوى لأبي اسحاق ابراهيم بن فتوح.المعيار،ج07،ص:118،وفتوى السرقسطي،المعيارج11،ص:148،وفتوى القاضي أبي عمر بن منظور،المعيارج01،ص:160و161،و موقف الإمام الشاطبي،المعيار،ج11،ص:39